المقتطف

الجزء الخامس من السنة السابعة عشرة

١ فبراير (شباط) سنة ١٨٩٣ الموافق ١٤ رجب سنة ١٣١٠

عين الرضى وعين السخط

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

قال الاستاذ مكس مڒ اللغوي الشهير في مقالة له نشرها حديثًا في المجلة الجديدة انهُ اعتاد منذ عهد طويل ان يقسم اصدقاءهُ ومعارفهُ والناس اجمع الى فريقين كبيرين فريق عيونهُ مشرقة وفريق عيونهُ مظلمة. فذوو العيون المشرقة يرون الحسن الطيّب وذوو العيون المظلمة لا يرون الاَّ القبح الرديء. وبينهما فريق يرى ما في الامور من حُسن وقبح ولا يحيد عن خطة الانصاف ولا يميل مع الاهواء ولكنهُ لا يفعل ذلك بالفطرة بل بالتربية

وقول مكس مڒ هذا شبيه بقول شاعرنا العربي الذي وصف العين الاولى بعين الرضى والثانية بعين السخط. ولو خطر هذا البيت على بال الاستاذ مكس مار لترجمهُ الى لغتهِ وجعلهُ موضوعًا لمقالتهِ

ولعلَّ الناس كما قال هذا الفيلسوف وذاك الشاعر لا يخرجون عن ذي عين مشرقة راضية ترى الحسنات وتغضي عن السيئات وذي عين مظلمة ساخطة ترى السيئات وتغضي عن الحسنات وذي عين ربَّتها التجارب وهذبتها شرعة الانصاف فترى الحسنة والسيئة ولكنها تذيع الحسنة وتباهي بها وتكثر من ذكرها وتنظر الى السيئة من طرف خفيّ وتقيل العثرة وتلتمس لها سبعين عذرًا اللهم الاَّ اذا كثرت السيئات وعمَّ ضرُّها ولم يبقَ احتمالها عزمًا ولا السكوت عنها حزمًا

وهذا سبب ما نراهُ من الاختلاف بين الناس في الاميال والاحكام فيدخل اثنان دارًا زيَّنها صاحبها بانواع التحف واعدَّ فيها كل ما يسرُّ زائريهِ ويشرح صدورهم. ثم يخرجان

منها بين قادح ومادح هذا ينظر الى بشاشة صاحب الدار وترحيبه براغبه واتقان ما اعدّهُ لهم من مأكل ومشرب وما زيّن بهِ دارهُ من انوار وازهار. وذاك ينظر الى إسرافهِ في نفقاتهِ وتفانيهِ في ما يعود عليهِ بالمدح والاطراء . وينظر اثنان في مجلة علميّة او صحيفة سياسيّة فيرى احدهما ما يعانيهِ المحرّر من المشقة في جمع الفوائد وتأليف المقالات العلميّة والادبيّة والنبذ الصناعيّة والزراعيّة او في جمع الاخبار وذكر الحوادث وبسط اماني الامة وشكاويها ومطالب الحكّام ومقاصدهم . وينتش الآخر عن خلّة من حيث يخفى مكانها ويجعلها قذًى في عينيهِ وعيون الذين على شاكلتهِ ويكبّرها بمنظار الغرض حتّى تعمي بصيرتهُ عن رؤية الحسنات . ويدخل سائحان بلادًا لم تطأها اقدامهما من قبل فيضربان في اقطارها ويقفان على تواريخها واخبارها ويعاشران اهاليها ويمازجانهم ثم يؤلّف احدهما كتابًا يصف فيهِ ذلك الشعب وصفًا بديعًا فيذكر ما لهُ من الحسنات وما في كتب اخبارهِ وشعائر اديانهِ مما يدل على طيب عنصرهِ وجودة فطرتهِ . ويؤلّف الثاني كتابًا آخر يقتصر فيهِ على وصف سيئات ذلك الشعب واوهامهم وخرافاتهم

وغنيٌّ عن البيان ان عين الرضى خير من عين السخط فهي ادعى الى الراحة ونعيم البال ورغد العيش من عين السخط التي تنغص عيش صاحبها ولا تريهِ من الدنيا وما فيها الاّ المساوئ والمكاره . وليس غرضنا من هذه السطور التنديد بمن قُطر على رؤية السيئات ولا وصف العلاج لهُ وانما غرضنا ان ننقل عن الاستاذ مكس ملر اقوالاً ترجمها عن كتب الاديان الوثنيّة التي دان بها اكثر شعوب المشرق قديمًا وحديثًا تأييدًا لما ذكرناهُ غير مرّة عن طيب عنصر المشارقة وسلامة فطرتهم واعتصامهم بباريء النسم مهما اختلفت شعائرهم . واستطرادًا الى مناظرة دارت حديثًا بيننا وبين احد فضلاء الاميركيين الذين لا يرون فضيلة لاحد من الناس الاّ باعتناق مذهب خاص

ومن هذه الاقوال التي نؤثرها عن الاستاذ مكس ملّر صلاة كان يصليها قدماء المصريين لمعبودهم امون وهم يعنون بهِ اله الكون وهي قولهم

" اليك ادنو يا ربّ الآلهة الاله الازلي الذي خلق كل الموجودات ليكن اسمك ملاذًا لي . اطِل ايامي فابلغ شيخوخة صالحة وليخلفني ابني في منزلي وليبقَ اسمي معهُ الى الابد كما يليق بالابرار المجدين في بيت الرب . . . من يعصي مشيئتك فالدمار جزاؤهُ لكن طوبى لمن يعرفك لان اعمالك من قلب مفعم بالمحبة . اياك ادعو يا ابي امون . هاءنذا في وسط شعب غريب . قامت الامم عليّ وانا وحدي وليس معي آخر . الذين يحاربون معي

تركوني ولم ينظر اليّ احدٌ من فرساني . دعوتهم فلم يصغ احد الى صوتي ولكنك خير لي من الف الف محارب ومن مئة الف فارس ومن عشرة آلاف راجل ولو كانوا متحدين معي . باطل عمل الناس فانهم امون يعلو عليهم كلهم" . وقس على ذلك صلوات كثيرة من هذا القبيل كان المصريون القدماء يدنون بها من الهم شكرًا على نعمه او طلبًا للعون والمدد

ومنها صلاة يصليها البراهمة الآن من كتابهم الفيدا وهو من اقدم الكتب الدينية وهي "اذا اضطربتُ وعصفتْ بي الرياح كالسحب فارحمني يا قديرُ . اذا خارت قوتي فضللتُ عن سواء السبيل فارحمني يا قديرُ . اذا ظلمتْ نفسي والمياه حولي فارحمني يا قديرُ . اذا خطيئتنا اليك يا ثرونا وتعدّينا شريعتك سهوًا فارحمنا يا قديرُ . انزع مني الرعب يا ثرونا ارحمني ايها الملك البار وانزع خطيئتي كما يُنزع الرباط من عنق الثور فاني اذا أقصيتُ عنك لم يعد في طاقتي ان اغمض عيني . لا تضربني يا ثرونا بالحراب التي تضرب بها الاشرار ولا تدحرني في الظلمة بل شتّت اعدائي فاحيا . . . قد تغنينا بمجدك يا ثرونا منذ القدم وستغنّى باسمك ايها القدير لان فيك تقوم كل الشرائع وتثبت كانها على صخر ازلي . أبعد عني معاصيّ ولا تأخذني بإثم غيري"

ومنها صلاة من الافستا كتاب الفرس اصحاب زردشت وهي

"طوبى لمن ينعم عليه هرمزد بالنعمتين الابديتين الصحة والخلود فانعمْ عليّ بهما وانلني السعادة والروح الصالح بواسطة ملاك التقوى . بك يؤمن كل احد كمصدر للنور ايها الروح المنعم . انت خلقت كل ما هو صالح بقوة عقلك الصالح ووعدتنا بالعمر الطويل . آمنتُ بك مصدرًا لكل خير لاني رأيت فيك علة الحياة في الخليقة . وانت تجازي كل احد على حسب عمله المسيء بالديمة والمحسن بالاحسان"

وهاك فقرات من الصلات التي يصليها ملك الصين الآن

"اليك ايها الخالق ارفع نفسي ما اعظم السماء مسكنك . انا عبدك لست الاّ قصبة وقلبي كتلب النملة ولكنك اظهرت لي نعمتك وسلطتني على مملكتك . عبدك انا احنو رأسي الى التراب واطلب منك النعم الوافرة . قد تنازلت يا الهنا لتصغي الينا لانك حببتنا لك بنين"

وقد ذكر الاستاذ مكس ملر هذه الشواهد من صلوات شعوب المشرق الذين يحسبهم اهالي اوربا وثنيين ضالّين وقال انها تدلّ على انهم يعرفون الله ويخلصون له العبادة في قلوبهم ولو اختلفوا في الرسوم الظاهرة وفي الاسم الذي يسمونه به . وقال ان الله سبحانه ينظر الى القلب والنيّة لا الى الرسوم الظاهرة واستشهد على ذلك بقصة ذكرها جلال الدين الشاعر

الفارسي وهي ان موسى الكليم عليهِ السلام سمع احد الرعاة يصلي الى الله و يقول اللهمّ ارني اين انت لكي اخدمك فاخصف نعلك وامشط شعرك وارفأ جبتك وآتيك بلبن لتشرب . فوبخهُ موسى قائلاً ايها الجاهل لقد ضللتَ سبيلاً وكفرتَ بالله فان الله روح لا يحتاج الى شيء مما تعرضهُ عليهِ بجهلك . فخاف الراعي ومزّق ثيابهُ وهرب الى القفر . واذا بصوت من السماء ينادي موسى قائلاً يا موسى الى اين طردتَ عبدي ان شأنك ان تهدي الناس اليَّ لا ان تبعدهم عني وانا قد اعطيتُ كل امةٍ اسلوباً خاصًّا بها لعبادتي ولو شئتُ لجعلتُ الناس امةً واحدة ولكنني غني عن حمدهم ومترفّع فوق كل اعمالهم ولا انظر الى كلام الشفتين بل الى نيات القلب ولا اطلب الكلام المنسجم بل القلب المضطرم ولقد اختلف الناس في طرق عبادتي ولكنني اقبل كل عبادة تصدر من القلب"

هذا وليس من غرضنا ولا من موضوعنا التعرّض للبحث عن معتقدات هؤلاء الشعوب ولا عن صحة عباداتهم او فسادها ولا عمّا براهُ فيها اصحاب الكتب المنزلة ولكننا نقول كما قال الوزير غلادستون وهو ان اشعار هوميروس اقوى دليل على عظم الدّين الذي نجد اوربا والغرب مديونين بهِ لآسيا وللشرق عمومًا . وعسى ان يشيع رأي مكس ملر وغلادستون وغيرهما من الفضلاء في نوادي اهالي اوربا واميركا و يقوى سلطانهُ على عقول الاوربيين فينظروا الى اهالي الشرق بعين الرضى ويحسنوا ظنهم فيهم ويغضوا عما يرونهُ من الخطإ في اعمالهم و يقصدوا في معاملتهم المساعدة لا الامتهان

اما اهالي المشرق فالجامعة التي تجمعهم الآن وتبعدهم عن اهالي المغرب ليست الوطن لان وطنهم يمتدُّ من بلاد يابان الى اقصى بلاد المغرب ولا الجنس لانهم من اجناس مختلفة بين مغول وهنود وترك وروم وعرب وقبط وهم مصدر اجناس الشعوب الاوربيّة . ولا الدين لان اديانهم مختلفة وهي مصدر اديان البشر العظيمة . وانما يجمعهم تنهفرهم بعد تقدمهم ووقوفهم بازاء اهالي اوربا وقوف المغلوب امام الغالب والضعيف امام القوي . وهي خطة لم نكن لنرضاها لانفسنا لو وضعنا غيرنا فيها ولكننا نحن وضعنا انفسنا فيها عنوًا والمرء حيث يضع نفسهُ . ونحن الآن في اشد الاحتياج الى التفتيش عن فضائلنا واذاعتها ودرء الحدود بالشبهات والنظر بعضنا الى بعض بعين الرضى لا بعين السخط الا مَن تمادى في المنكرات ولم يبقَ الى اصلاحهِ سبيل او مَن قطر على الاضرار بالناس فان دفع ضرّهِ بالتي هي احسن امرٌ واجب . وعسى ان يرى الاوربيون من نصرتنا بعضنا لبعض وابتعادنا عن الدنيّة ما يزيدنا رفعةً في عيونهم فيروا المشرق مصدرًا للحكمة والفضيلة كما رآهُ اسلافهم من قبلهم